مقتطفات من كتاب
شكراً أيها الأعداء
سلمان العودة

حدوتة كتاب

إليك...لأنك تعرف لماذا!؟

كبسولة خير للبرمجيات
مصطفى علي سيد
(أبو مهاب)
https://cap-khir.com
sedratalmontha@gmail.com

شكرًا أيُّها الأعداء

أسوأ صناعة في الحياة هي صناعة الأعداء!

وهي لا تتطلب أكثر من الحمق وسوء التدبير وقلة المبالاة؛ لتحشد من حولك جموعًا من المغاضبين والمناوئين والخصوم.

وقد علَّمتني التجارب أن من الحكمة الصبر على المخالفين، وطول النفَس معهم، واستعمال العلاج الرباني بالدَّفع بالتي هي أحسن ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

يا مَـنْ تُضَايِقُـهُ الفِعَالُ   مِـنَ الَّتِي وَمِـنَ الَّـذِي
اِدْفَعْ فَـدَيْتُـكَ ﴿ بِٱلَّتِى ﴾   حَتَّى تَرَى ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى ﴾

وعلَّمتني التجارِب ألَّا آسى على أولئك الذين يأبون إلَّا أنْ يكونوا أعداءً ومناوئين؛ فهم جزء من السنة الربانية في الحياة، وهم ضريبة العمل الجادِّ المُثمر.

شكرًا أيُّها الأعداء!

فأنتم مَن علَّمني كيف أستمع إلى النقد والنقد الجارح دون ارتباك، وكيف أمضي في طريقي دون تردُّد، ولو سمعت من القول ما لا يَجْمُل ولا يليق.

شكرًا أيُّها الأعداء!

فأنتم مَن كان السبب في انضباط النَّفْس وعدم انسياقها مع مدح المادحين، لقد قيَّضكم الله تعالى لتعدِلوا الكِفَّة؛ لئلا يغترَّ المرء بمدح مفرط، أو ثناء مسرف، أو إعجاب في غير محله، ممن ينظرون نظرة لا تَرَى إلا الحسنات، نَقيض ما تفعلونه حين لا ترَوْن إلا الوجه الآخر، أو ترَون الحسنَ فتجعلونه قبيحًا.

شكرًا أيُّها الأعداء!

فأنتم سخَّرتم ألسنةً تدافع عن الحق، وتنحو إليه ويستثيرها غمطكم؛ فتنبري مدافعة مرافعة.

لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فيما جَاوَرَتْ   مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ[1]

شكرًا أيُّها الأعداء!

فأنتم ذَوُو الفضل -ولو لم تشاؤوا- في صناعة قدر من الاتزان والعدل في الفكرة.

ولربما أُعطي الإنسان بعض الحق فوق قدره؛ فكنتم السبب في إحكام التوازن، ودقَّة التَّصويب والمراجعة.

ولكني أقول حقًّا: **أنتم الأصدقاء الحقيقيون..**

وأنتم إخوة في الله، مهما يكن الخلاف، ولو نظرنا إلى نقاط الاتفاق لوجدناها كبيرة وكثيرة!

فنحن متفقون على أصول الإيمان، وأركان الإسلام، ولُباب الاعتقاد، فما بالنا نتكلف استخراج وتوليد معانٍ جديدة؛ لنفاصل حولها، ونصنع الخلاف، ثم نتحمس له؟!

قال حاتم الأصم رحمه الله: «معي ثلاث خصال بها أظهر على خصمي». قالوا: وأي شيء هي؟ قال: «أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن له إذا أخطأ، وأحفظ نفسي لا تتجاهل عليه»[1].

شكرًا أيُّها الأعداء!

فأنتم مَن شحذ الهمة، وصنع التحدي، وفتح المضمار، وشرع السباق؛ ليصبح المرء شديدَ الشُّح بنفسه، كثيرَ الحَدَب عليها، حريصًا على ترقِّيها، وتحرِّيها لمقامات الرفعة والفضل.. والتنافس سنة شرعية، وقدر رباني: ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦]، وشرف المنافسة هو بشرف الأسلوب ونقاء الغَرَض، وصدق الوسيلة، وطهارة الجَيْب!

شكرًا أيُّها الأعداء!

فأنتم مَن درَّبنا على الصبر والاحتمال، ومقابلة السيئة بالحسنة والإعراض.

«يأسَى المرءُ لمعركة يقضي فيها حياتَه، تنتهي دون نصر أو هزيمة..

كما يأسَى لأخرى تستنفد عمره وتنتهي بهزيمة، وثالثة تنتهي بانتصاره على أخيه..

إن المعركة الحقيقية هي معركة الانتصار على النفس!

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]»

«الإنسان يبحث عن دور يمثِّل شخصيته؛ فإما أن يعمل، أو ينتقد الذين يعملون».

وقال زياد: «من سعادةِ المرء: أن يطول عمرُه، ويرى في عدوه ما يسرُّه»[١].

وهذا ضيق نفس واحتدام خصومة، وإلا فالعاقل يدري أن الأعداء الصرحاء جزء من الناموس، والدول العظيمة تصنع لها عدوًّا؛ لتحشد طاقتها في مواجهته، فضلًا عن أن معظم الخصوم ليسوا أعداءً على الحقيقة، وإنما بينك وبينهم من مشتركات الدين والمبادئ والقيم والأخلاق أكثر وأعظم من مواطن الاختلاف التي ينفخ فيها الشيطان، وتُكَرِّسُها[٢] النفوس المريضة، ويتشاغل بإثارتها الفارغون والبطَّالون.

ويومًا ما جاء أحد الشباب لشيخي صالح البليهي رحمه الله، وطلبه على انفراد، فلما خلا به قال: إني أبغضك في الله. فابتسم الشيخ وقال له: لمَ؟ قال: لأنك تفتي بإخراج صدقة الفطر من الرز، وبصلاة التراويح خمسًا. قال الشيخ: هذه هي السنة، وقد علَّمنا رسولُ الله ﷺ أن من الأدب أن أحدنا إذا أحب أخاه في الله أخبره أنه يحبه، كما في الحديث الذي رواه أبو داود[١]، ولكني لم أقف على حديث أنه إذا أبغض أخاه فليخبره أنه يبغضه في الله!

اعتاد رجل أن يأتي باب أبي هريرة رضي الله عنه؛ فيؤذيه ويثقل عليه. فقيل لأبي هريرة رضي الله عنه: قد مات. فقال: «ليسَ في الموتِ شَماتة»[٤].

لا تسمح لقلبك أبدًا أن يفرح بموت مسلم عابد لله، لمجرد خصومة بينك وبينه، فإن أَبَى قلبك إلا هذا، فتخلَّ عنه؛ فإنه ليس قلبًا، بل هو حجر من الحجارة، بل الحجارة ألين منه وأرق؛ فهي تبكي لموت المؤمن، كما قال تعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ [الدخان:٢٩].

هذا الانتظار الطويل القاتل لموت فلان وفلان.. قد قتلك أنت قبلهم؛ فاستدركْ ما بقي بإنجاز تتوب به من معرَّة استعجال القدر، والغفلة عن حكم الله وحكمته، وقراءة الحياة بصورتها الصحيحة الواسعة المرنة، واخرُجْ من قوقعتك التي أسرت نفسك فيها، إلى بحبوحة الرضا والإيمان، وضع نفسك موضعها، بلا تعاظم ولا ازدراء، وردد: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

كما قال بعض السلف.

وفي صحيح السنة: «**المُؤْمِنُ مَأْلَفٌ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ**»[١].

لكن مما يحسن أن يضاف إلى هذا المعنى؛ حتى تكتمل صوابيته: أن المرء كلما اتَّسعت دائرته اختلف الأمر بالنسبة إليه؛ لأن الدائرة التي تتعامل معه –رضًا وقبولًا، أو ترددًا وشكًّا، أو رفضًا واتِّهامًا– هي دائرة واسعة، ربما تمتدُّ لتشمل البشرية كلَّها جمعاء، كما تراه في شأن مشاهير المصلحين والمؤرخين، وعلى رأسهم أنبياء الله ورسله، صلوات الله وسلامه عليهم.

«اكتشفتُ أن حسَّ المعركة هو (المفتاح السحري) الذي بمقدوره تشغيل (نظام الفكر والعمل) لدى الجمهور الأعظم من الناس!».

«ليس من الرُّشد أن تصنِّف الناس إلى أعداء وأصدقاء، وكأنك مركز الكون، فهناك الكثيرون لم يعلموا بوجودك أصلًا!».

«بمقدورك ألَّا تُحبَّ الظروفَ الصعبةَ، لكن ليس عليك أبدًا أن ترفض التعامل الإيجابي معها!».

«لست مسؤولًا عما يعمله الآخرون تجاهك، بل عمَّا تعمله أنت تجاه الآخرين».

«أتدري لماذا يهاجمونك؟ لأنهم يريدون أن يلعبوا مع الفريق الفائز!».

فالتصنع والانسجام هو سيد الموقف..

ولقد كان مما علّمونا –لو تعلّمنا– ﷺ: كيف يكون المرء مترفعًا، عفَّ القول، حسنَ الظن بالآخرين، يتّهم نفسه قبل أن يتهم غيره عند الاختلاف:

أَتَانَا أَنَّ سَهْلًا ذَمَّ جَهْلًا ... أُمُورًا لَيْسَ يَعْرِفُهُنَّ سَهْلُ
أُمُورًا لَوْ دَرَاهَا مَا قَلَاهَا ... وَلَكِنَّ الرِّضَا بِالْجَهْلِ سَهْلُ[1]

قال ابن دقيق العيد: «أعراضُ المسلمين حُفْرَةٌ من حُفَرِ النار، وقف على شَفِيرها طائفتان من الناس: المحدِّثون والحُكَّام»[1].

ولو أن امرأً شغل نفسه وحياته بسبِّ فرعون وهامان وقارون وأبي جهل وأبي لهب ورؤوس الكفر والشرك، فهو يسبُّهم ويفضحهم ويلعنهم، لكان مذمومًا ملومًا على تفريطه بالطاعات، وتركه للواجبات، وانشغاله عن ذكر الله تعالى بذكر فلان وفلان، ولربَّما مات مسلم لا يعرف هؤلاء، ولم يسمع بأسمائهم، فكان من أهل الدرجات العلا، وهذا صح عن النبي ﷺ من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ: «لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ؛ فَتُؤْذُوا الأَحْيَاءَ»[1].

وفي حديث عائشة ﵂: «**فَإِنَّهُم قَدْ أَفْضَوا إِلَى مَا قَدَّمُوا**»[2]. قال هذا في أبي جهلٍ، فرعون هذه الأمة[3].

إن النفس المشغولة بالبحث عن عَثَرات الناس وجمعها ومحاصرتهم بها، نفس مريضة ولا بد، والنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله، ومن ظلم المرء لنفسه أن يختصر الآخرين في زلاتٍ محدودة، فإن النفس البشرية فيها من العمق والاتساع والتنوع، ما يجعل كل إنسان فيه جوانب من الخير لو فُعِّلت واستُخْرِجت ووُظِّفت، لكان من ورائها خير كثير.

ولذلك كان المصلحون نابغين في هذا الجانب، جانبِ تحريكِ الخير الكامن في نفوس الناس، وهذا يكون بالثناء المعتدل الصادق، مثلما تجده في ثناء النبي ﷺ على قبائل وأحياء وأعيان ومواطن.

وقديمًا كان حكيم الفقهاء (الشافعي) يقول:

- قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب[1].
- ما ناظرت أحدًا فأحببت أن يخطئ، وما ناظرت أحدًا فباليت أظهر اللهُ الحقَّ على لسانه، أو على لساني[2].
- لو خاصمتُ ألفَ عالم لخصمتهم، ولو خاصمتُ جاهلًا لخصمني.
- يا ربيع، اكسُ ألفاظك[3].
- ألا يمكن أن نكون إخوة؛ وإن لم نتفق في مسألة[4]؟!
- الحر مَن راعى وداد لحظة، أو تمسك بمَن أفاده لفظة.

جدَّ في هذا العصر (الشتمُ الإلكترونيُّ) عبر مواقع الإنترنت، شتيمة مجانية بغير حساب، باسم صريح مكشوف، وتلك لعمرِ الله هي المجاهرة بالخطيئة، و«كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ»[1].

«أعط الناس أفضل ما لديك، وستصاب بحزن وإحباط شديد، فلا تتردد، أعط الناس أفضل ما لديك».

«لا تضع على الحق أسوارًا منيعة تحول دون الناس ودونه، ولا تدقق في هويات الداخلين، ولا تطلب منهم الاعتراف؛ فالحق ليس خصوصية لفرد ولا جماعة».

«إذا كان الجهد قليلًا؛ فعليَّ أن أختار الميدان الملحَّ».

«الصراع يستخرج أسوأ ما في النفس من الشرور والانفعالات، فإذا كان ضرورة، فهو أهون الشرَّين».

«التقنية لم تهذِّب طباعنا، بل أعطتنا أدوات جديدة للانتقام والتشفِّي!».

كان السلف يعظِّمون النص في قلوبهم، حتى إن أحدهم لا يتجرأ على أن ينسب اجتهاده لنص؛ خشية أن يكون الخلل في فهمه هو، فيبقى النص متعاليًا ساميًا، ما دام أن المسألة فيها أخذ وَردٌّ.

صلَّى الوليدُ بنُ عقبةَ بالناس الفجرَ، فصلَّى أربعًا، وكان ثَمِلًا[1]، ثم التفت، وقال: أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود ﷺ: «ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة»[2]!

الجميع، وقد يقع أن يُفرِّط أمرؤٌ فيما يراه، فيلحّ على إلحاقه بالضروريات؛ ليجعله في مأمن من المراجعة، **ولئن كان الإمام مالك راجع الليث بن سعد، ومحمدُ بن الحسن كتب (الحجة على أهل المدينة)، وتكلم أحمدُ في مسائل لإسحاق، وتكلم الشافعيُّ في مقالات لأبي حنيفة، مع الامتياز العلمي والمنهجي لكل هؤلاء؛ فمن اللازم أن نكون واضحين في قبول مقالاتنا واجتهاداتنا للمراجعة والنقد.**

ليس من منهج النقد الصحيح تتبع الشاذة والفاذة[1] في حق عامة الناس، فضلًا عمَّن له قدم في العلم والجهاد، فهذا من تتبُّع العورات، وهو يقود إلى نتيجة في ذهن الكثير، هي أن فلانًا جملة من الغلَط والسقط.

وقد قيل لعثمان ﷺ: إن قومًا اجتمعوا على سُكْرٍ ولهو وقصف[2]، فجاء إليهم، فوجدهم قد تفرقوا، فحمد الله وأعتق رقبة.

وفي «سنن أبي داود» من حديث معاوية ﷺ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «**لا تَتَّبِعْ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ؛ فإنَّكَ إنْ فَعَلْتَ أَفْسَدْتَهُم، أو كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُم**». قال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله بها[3].

وفي الحديث: «أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِم»[2].

من الخطأ الشديد أن يتحول التصحيح والنقد إلى لغة معاقبة، واستفزاز لمشاعر الناس وطبيعتهم، وتريد في الأخير أن تُذعِن ناصيتَهُ لرأيك ومراجعتك، وإلا كان ممن عاند وكابر الحق، وشابَهَ فرعون وقارون!

هذه معادلات من الظلم أن يحمل الإسلام والمنهج الشرعي تبعتها، أو المسؤولية عنها.

إنها نزعات نفسية في طبائع كثيرين، يتلذَّذ أصحابُها باستذلال الناس وجرِّهم خلفَهم.

قلت يومًا لصاحبي: أُقبل عليك بكامل الإخلاص ما أردت، وأتركك بكامل العذر ما أردت!

«إني أقبل عليك بكامل الإخلاص إن أردتَ، وأعرض عنك بكامل العذر إن أردتَ».

«أن تكون مخلصًا لإيمانك، يعني: ألَّا تحوِّل خصومَك الشخصيِّين إلى خصوم للإيمان ذاته».

«الإلف الاجتماعي لا يجدر أن يكون سببًا في التشبُّع بفكرة، ولا يكون سببًا في رفضها».

«خوض المعارك يمنح المقاتِل الرضا الوقتي، ولكنه يحرمه من النتيجة التي يتوخَّاها».

«النقد تَبِعَةٌ ضرورية لكل مَن يعمل شيئًا يَهُمُّ الآخرين».

«إن تحطيمَ شخص ما، وحشد هفواته المزعومة لإعلاء شأن ذاتك، لهو أحطُّ أنواع الأنانية».

«قد تجد متعة في إحباط الآخرين، بإشهار أخطائهم، والتذكير بعثراتهم، ولكنك ستجد متعة أكثر وأطول لو اعتنيت بجوانب قوتهم وإمكاناتهم وصواباتهم!».

«مجالسة الحكماء تُقلِّل من تأثير النقد السيئ عليك، وتثنيك عن كثرة النقد للآخرين».

«تجربتي المتواضعة تقول: إنَّ إدمانَ المعارك والاعتيادَ على خوضها من أعظم معوقات النهوض والتنمية:

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيهِ لهُم طاروا إليه زَرافاتٍ ووُحدانا

لا يَسألونَ أخاهُم حينَ يَندُبُهُم في النائباتِ على ما قالَ بُرهانا

الكثير من معاركنا هي «فزعات»!».

«مدحتني مدحًا لا تحلُم به النجومُ، وذممتني ذمًّا لا تربضُ عليه الكلاب، وأُراني فوق هذا، ودون ذاك، وهي أباطيل تتكاذب..».

«النقد البناء حين أنتقدك، أما النقد الهدام فهو حين تنتقدني».

«الأذنُ الصَّماءُ هي أكبر دليل على العقل المغلق، وإذا لم تعوِّد نفسك على الاستماع بعناية وذكاء، فلن تحصل على الحقائق التي تحتاجها».

«أنت لا تصنع شيئًا بنقل الأزمة من ميدان الحياة إلى ميدان النفس!».

«الشخصية القتالية ليست هي الشخصية البناءة، إنها تتعامل وكأنها مطرقة، وكأن كل شيء حولها هو مسمار».

«المفكِّرون الكبار –أصحاب الأفكار العظيمة– يمكن نبذُ أفكارهم ورفضها من قبل البسطاء، ذوي العقول الصغيرة..».

«لا تكن من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم؛ فهي الخسارة التي لا تعوَّض».

«إذا لم يكن لديك سلام، فهذا معناه أنك أنت الذي فرَّطت فيه، وليس أن شخصًا آخر سلبه منك!».

«رأيت شعوبًا تقاتل كالوحوش، ثم رأيتها بعد هدوء المعركة كالحملان الوديعة، الإنسان ليس لونًا واحدًا!».

«الهزيمة النفسية تصنع الخوف من التعامل العفوي مع الآخرين».

«ليس من الضروري أن تطفئ أنوارَ الآخرين؛ لتجعل نورَك يضيء!».

«اسأل نفسك: هل نجحت فيما تقول: إن الآخرين فشلوا فيه؟».

«يُوجد دائمًا قمَّةٌ أعلى ذاتُ منظرٍ أجمل، شيء ينتظرني لأتعلمه. لا تُحبط همَّتي بمدحِك المفرط، أو ذمِّك المفرط. دَعْني أمْضي قُدُمًا في طريق النُّمُوِّ حتى آخر لحظة من عُمري!».

«إذا فعلت الخير فستجد من يتَّهمك بأن لك دوافع خفية، وكأن لا أحد يفعل الخير إلا وعينه على ذاته!

* والخير الذي تفعله سوف يُنسى سريعًا.
* وخوضك سيعرضك للتجريح.
* امض ولا تتردد، وليكن فعل الخير سجيتك».

قلت يومًا: إن بعض متطرفي الغرب يقولون: (مَن لم يكن معي، فهو ضدي). وبعض متطرفينا يقول: (مَن لم يكن معي، فهو ضد الله)!

«أن تكون مخلصًا لإيمانك، يعني: ألَّا تحوِّل خصومك الشخصيِّين إلى خصوم للإيمان ذاته».

«بمقدورك ألَّا تُحبَّ الظروف الصعبة، لكن ليس عليك أبدًا أن ترفض التعامل الإيجابي معها!».

«الإلف الاجتماعي لا يجدر أن يكون سببًا في التشبُّع بفكرة، ولا يكون سببًا في رفضها».

«خوض المعارك يمنح المقاتل الرضا الوقتي، ولكنه يحرمه من النتيجة التي يتوخَّاها».

«النقد تَبِعَةٌ ضرورية لكل مَن يعمل شيئًا يَهُمُّ الآخرين».

«قد تجد متعة في إحباط الآخرين، بإشهار أخطائهم، والتذكير بعثراتهم، ولكنك ستجد متعة أكثر وأطول لو اعتنيت بجوانب قوتهم وإمكاناتهم وصواباتهم!».

«إن تحطيمَ شخص ما، وحشد هفواته المزعومة لإعلاء شأن ذاتك، لهو أحطُّ أنواع الأنانية».

«الأذنُ الصَّماءُ هي أكبر دليل على العقل المغلق، وإذا لم تعوِّد نفسك على الاستماع بعناية وذكاء، فلن تحصل على الحقائق التي تحتاجها».

«المفكِّرون الكبار –أصحاب الأفكار العظيمة– يمكن نبذُ أفكارهم ورفضها من قبل البسطاء، ذوي العقول الصغيرة..».

«مدحتني مدحًا لا تحلُم به النجومُ، وذممتني ذمًّا لا تربضُ عليه الكلاب، وأُراني فوق هذا، ودون ذاك، وهي أباطيل تتكاذب..».

«إني أقبل عليك بكامل الإخلاص إن أردتَ، وأعرض عنك بكامل العذر إن أردتَ».

«مجالسة الحكماء تُقلِّل من تأثير النقد السيئ عليك، وتثنيك عن كثرة النقد للآخرين».

«لا تكن من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم؛ فهي الخسارة التي لا تعوَّض».

«الهزيمة النفسية تصنع الخوف من التعامل العفوي مع الآخرين».

«رجال الإنقاذ الذين يحيطون بالقارب، لا وقت لديهم لمضايقة الآخرين أو إزعاجهم».

«رأيت شعوبًا تقاتل كالوحوش، ثم رأيتها بعد هدوء المعركة كالحملان الوديعة، الإنسان ليس لونًا واحدًا!».

«إذا لم يكن لديك سلام، فهذا معناه أنك أنت الذي فرَّطت فيه، وليس أن شخصًا آخر سلبه منك!».

«النقد البناء حين أنتقدك، أما النقد الهدام فهو حين تنتقدني».